

ذكرى الانتصار

مراحل تطوّر الإنشاد الديني والثوري منذ الثمانينات حتى اليوم أن تغني للحرب... «بأعلى الصوت»

كانت أناشيد الثمانينات ذات جودة موسيقية منخفضة، تعتمد على الاورغ، والآلات القرعية، والصوت البشري... قبل ان تتطوّر مع دخول أسماء وموسيقيين وبروز فرق احتدمت المناقشة الإيجابية في ما بينها. في ذكرى الانتصار، عودة إلى تاريخ عاطفي «مهموسق» يصلك وجدانياً برموز العداوات والمقاومة

محمد مهدي عيسوي

عام 1983، ضاحكةبيروت الجنوبية. انتهى الاحتفال الكشفي، هدأت الطبول والأبواق. اقترب سيد شاب يدعى حسن نصر الله من الكشافة الموسيقين، وقال لهجم: «حسنًا، تستطيعون عزف النشيد الإيراني أو اللبناني؟» أو ربما «يايَ الصدر منا سلامًا؟» قوموا بذلك إن استطعتم، لاحقاً، من تلك الفرقة وامتلأها، سيولد نشيد حزب الله الثوري؛ خزائن تاريخنا الحربي الطويل. تاريخ عاطفي «موسق»، وموّه ليطلقك ويصلك وجدانياً برموز العدوان والمقاومة: اللدبية، معقل الخيام، طائر أيلول، جميلة صفدي، أنصارية... وقادر على أن يُشرك في تجربة لم تعشها، خاصة، إن كنت مثلي من مواليد التسعينات. قد لا تروقك موسيقاها أحياناً، وقد تصيبك بالدوار ضوضاء الطبول، لكنك حين تتذكر أن بعض هذه الأناشيد كانت تُنثج تحت النار حقيقةً لا مجازاً، وأنها كانت للسان الغني شبه الوحيد لأجيال من المقاومين، ستبدأ بنمائها بشكل مختلف، وستلتمس صدقاً لا يُفسر فنياً بمعايير واضحة.

إن كانت بداية المقاومة ملحمية، فمن الطبيعي إذا ن إُلجا أولاً لاستذكار ملحمة كربلاء بكل ما تحمله من طاقة روحية، وقدرة على تمثّل الظلم والصبر التاريخيين بوصفهما أصلاً مطابقاً للواقع. هكذا حضرت رموز كربلاء، مطلع الثمانينات، من خلال مرثيات أهنكران وعسكاري وأبو حسن شمران، وجرى ربطها بقيم رموزومز كانت قد أخذت بالصعود والتشكل. كان الاستنهاض للقتال من خلال الشعاثر في ذروته، وكانت «للطلمية» الشكل «الغني» شبه الوحيد في الحثّ على الصمود. رغم الضعف العسكري البارز. وقد حظيت «للطلمية» بصفقتها طساً دينياً، شرعيةً فقهية تامة. مما كان متعذراً أن يناله الشعر الملحن والغني، رغم أن العراق (قطب المرجعية الدينية) كان سبقاً في الإنشاد الديني والثوري، وفي تصدير هذه الأناشيد إلى العالم الإسلامي (مثلاً شريط «قلها بأعلى الصوت»)، في الوقت الذي ذاعت فيه أناشيد أخرى صدرها البحرانيون («يوم مولدي.. يوم أفندي») أو الإخوان المسلمون («غضبي نار.. حجري مدفع»). لكن انتشار هذه الأناشيد لم يكن بذلك الاتساع الذي عرفته مرثيات «الروايد» الإيرانيين أو اللبنانيين، الذين أسهموا في نقد فقه الواسدة المشكك في شرعية القتال وتعريض النفس للهلاك من أجل قضية بهذا الحجم (أمام

اشتراكات شهرية أو تبرعات متواضعة. مثلاً، فرقة «الإسراء» التي خرجت من ثوب «كشافة المهدي»، اشترت الآلات الموسيقية بمساعدة تبرعات الأهالي الذين عملت الفرقة على إيقاظهم في السحر بالأناشيد الرضائية المعزوفة بشكل حي في حافلة صغيرة تجوب الأحياء، وفي هذا العقد، بدأ الهواة بالبحث عن سبل لتطوير مهاراتهم وتعزيز الاتهم، فأنضم بعضهم إلى الفرق الموسيقية العسكرية الرسمية، أو سعوا لإشراك عدد أوسع من الآلات في العزف كما يسرد أنور نجم: «ارت السيد عباس الموسوي بصحبة الملحنين نبيل ومحمد عساف، وقلنا له: سيدنا، يتوجب علينا تطوير النشيد. وافقنا فوراً» وقال: ما المطلوب مني؟ شرح له الملحنان إن علينا شراء التي الساكسون والكالارين من النمسا. بعد يومين سلمنا المبلغ الكافي لشراء الآتين». لم تكن المغارقة في أن يتولى السيد شراء التي بنفسه،

كانت «الطلمية» الشكل «الغني» شبه الوحيد في الحثّ على الصمود رغم الضعف العسكري البارز

شهدت التسعينات انفتاحاً أوسع للنشيد على المجتمع اللبناني، وخفضاً لمستوى التعبئة الصلبة، وترميز فئات محددة كالشهداء والأسرى

ولا في استدانته لذلك مالأ لم يكن بحوزته. المغارقة الحقيقية هي أن الآتين استخدمتا للمرة الأولى في نشيد «الشعب استيقظ يا عباس» الذي أنشد عقب استشهاده عام 1992. بدأ النشيد في التسعينات يفتح على قضايا جديدة، ويضطلع بمهمة غير التعبئة السياسية وبت «الروح الحربية»، أي مهمة إعلان الموقف السياسي. وذلك ما يظهر في نشيد «المجد لأيلول الشهداء» الذي أوّز القائد عماد مغنية لفرقة الولاية بإنشاده لـ«هن الدولة» كما عبّر، وإبلاغها بأن ما فعلته في الثانية عشر من أيلول عام 1992 كان خطأ فادحاً وخائنة صريحة بحق «الشعب الحر الباسل». لم تقتصر مشاركة مغنية على ذلك، فقد ناقش القصيدة مع الشاعر أنور نجم، وطلب منه أن يجري بعض التعديلات، وهو ما لم يحدث نظراً لإصرار الشاعر على موقفه في ما يخص الجانب البلاغي من القصيدة. وكما لم يعد خافياً، أنشد المطلوب الأكثر خطورة في لائحة وكالة المخابرات المركزية (CIA) نشيداً لشهداء أيلول ضمن غريباً عن القائد الذي كان يدندن بالغناء في أشد اللحظات حراجة، والأمير بإخراج عثموات الرجمات من مخابئها قبيل حرب تموز 2006 لتستخدم في تصوير «فيديو كليب» لنشيد «نصر هز الدنيا» وفق شهادة المسؤول الإعلامي لحزب الله في منطقة بيروت غسان درويش.

حُدثت أناشيد حزب الله في المناقشة بين الفرق الموسيقية، وجرى نقل الوقائع العسكرية المختلفة إلى مدار الإنشاد: نصفيه الحساب 1993، عنأقيد الغضب 1996، مجزرة قانا 1996، عملية أنصارية 1997، استشهاد هادي حسن نصر الله 1997... وقد صاحب الإعلان عن اسمائهم هي لا يخاطب كان المنشدون والملحنون، قبل الالغية الجديدة، يتورعون عن الإعلان عن اسمائهم هي لا يخاطب المجتمع اللبناني، وخفض مستوى التعبئة الدينية، وترميز فئات محددة كالشهداء والأسرى والقادة والعمليات النوعية. وفي هذا العقد، ولد نوع آخر من الأناشيد غير الثورية عرف باسم «الوجدانيات» أو بتعبير الملحن أحمد همداني «الأناشيد المسيحية»، وهي استوديو خاصاً في منزله وآتقن تمجّد الخالق ومخولقاته، وتطرح المسائل العرفانية بصورة بلاغية جميلة. كان على رأس هذا النوع الجديد الذي يعتبره همداني واحداً من الإنجازات المحلية غير المسبوقة: الشاعر طارق إدريس والنشد بسام مشمس. بيد أن هذا النوع توقف بعد توقف إدريس عن منح حقوق قصائده لفرق الإنشاد نظراً لسوء استخدامها.

يصعّب القول إنّ النشيد أخذ بالتشظى بدءاً من 25 أيار 2000. دفعاً كبيراً للنسائ والمقاومين» يقول العطار لـ «الأخبار». كانت قناة «المنار»، وإذاعة «النور»، بحثاً على مدار الحرب النشيد والثناء، فاستعدت أناشيد الحرب المصرية - الإسرائيلية وخرجت من النسيان مجموعة من الأناشيد التسعينات ولطميات الثمانينات. كان الجو مشحوناً بما يكفي ليستدعي كلمات الثورة وموسقى الأمجاد. استمع المقاتلون إلى الأناشيد عبر الأجهزة اللاسلكية أو عبر القنوات الإعلامية مثلما كانوا يستمعون إليها مباشرة في التسعينات، حين كانت الفرق تنشد في المواقع العسكرية الخلفية لتقدم بالعرم وإرادة الثبات.

انتهت الحرب وانحصر لبنان. الجميع انحصر: لبنانيون وعرب. هذا ما أعلنه السيد نصر الله عند انتهاء الحرب. أنشد «نصر العرب» بمشاركة فنانين لبنانيين وسوريين ومصريين، وبإشراف القائد عماد مغنية الذي راجع الـ Storyboard بنفسه. أنتجت مجموعة كبيرة من الأناشيد وأعيد توزيع أخرى. انفتح النشيد على العرب وسعى حزب الله إلى إشراك شعراء ملحنين وموزعين جدد غير منتسبين أو منتمين إليه (زياد بطرس، عبود منذر، ميشال فاضل، نزار فرنسيس)، وهو ما أسهم في المساعي التي ابتدأت منذ عام 2000 لإضفاء الهوية اللبنانية على النشيد، سواء من حيث اللحن والتوزيع أو لجبهة إنشاد الشعر اللبناني المحكي.

انحلت معظم الفرق الإنشادية بعد حرب تموز وأصدائها، وانخفض المشغولون القدامى في هذا الفن إلى أشغالهم الخاصة بعد فشل وحدة الأنشطة في حزب الله عن التحكم بمسار الإنتاج. مع ذلك، ظلت بعض الأناشيد أو المرثيات الهزلية تخرج من وقت إلى آخر. حرب طولية في الشام لم يعز لها بشكل رسمي. ظلت بلا موسيقى. أيكون انتهى زمن الغناء للحرب؟

«البدائية» على «المبادئ»

كما جرت العادة، تخصص «المبادئ» مساحة أفره على شاشتها لذكرى انتصار 2006. اعتباراً من اليوم 12 يوماً من بدء حرب تموز 2006، وقف المنشد على العطار وفرقة فوق الركام في حارة حريك، وأنشد «لبنان أكبر من هيك...» عشرون دقيقة، والطائرات الخرية تحوم فوق رؤوسهم الغبار يتصاعد من الابنية، ورائحة البارود تزكم الأنوف: «كان هدفنا أن نوجه رسالة للإسرائيليين باننا موجودون في الضاحية، وهذه الرسالة شكلت دفعا كبيرا للنسائ والمقاومين»

يقول العطار لـ «الأخبار»: كانت قناة «المنار»، وإذاعة «النور»، بحثاً على مدار الحرب النشيد والثناء، فاستعدت أناشيد الحرب المصرية - الإسرائيلية وخرجت من النسيان مجموعة من الأناشيد التسعينات ولطميات الثمانينات. كان الجو مشحوناً بما يكفي ليستدعي كلمات الثورة وموسقى الأمجاد. استمع المقاتلون إلى الأناشيد عبر الأجهزة اللاسلكية أو عبر القنوات الإعلامية مثلما كانوا يستمعون إليها مباشرة في التسعينات، حين كانت الفرق تنشد في المواقع العسكرية الخلفية لتقدم بالعرم وإرادة الثبات.

انتهت الحرب وانحصر لبنان. الجميع انحصر: لبنانيون وعرب. هذا ما أعلنه السيد نصر الله عند انتهاء الحرب. أنشد «نصر العرب» بمشاركة فنانين لبنانيين وسوريين ومصريين، وبإشراف القائد عماد مغنية الذي راجع الـ Storyboard بنفسه. أنتجت مجموعة كبيرة من الأناشيد وأعيد توزيع أخرى. انفتح النشيد على العرب وسعى حزب الله إلى إشراك شعراء ملحنين وموزعين جدد غير منتسبين أو منتمين إليه (زياد بطرس، عبود منذر، ميشال فاضل، نزار فرنسيس)، وهو ما أسهم في المساعي التي ابتدأت منذ عام 2000 لإضفاء الهوية اللبنانية على النشيد، سواء من حيث اللحن والتوزيع أو لجبهة إنشاد الشعر اللبناني المحكي.

انحلت معظم الفرق الإنشادية بعد حرب تموز وأصدائها، وانخفض المشغولون القدامى في هذا الفن إلى أشغالهم الخاصة بعد فشل وحدة الأنشطة في حزب الله عن التحكم بمسار الإنتاج. مع ذلك، ظلت بعض الأناشيد أو المرثيات الهزلية تخرج من وقت إلى آخر. حرب طولية في الشام لم يعز لها بشكل رسمي. ظلت بلا موسيقى. أيكون انتهى زمن الغناء للحرب؟

تكريم

كم كنت على حقّ

إن الخطط مهما كانت بديعة وكاملة إذا لم يحملها رجالٌ مناقب وأخلاق فهي لا محال ساقطة.

أخرجتنا من جلدنا القديم، من حزازاتنا الضيقة وطانفياتنا وأنانياتنا، إلى رحاب المصلحة العامة والخير العام.

فماذا فعلنا نحن بكل ذلك؟

نكتشف اليوم أكثر من أي وقت مضى كم كنتَ على حقّ؟ نكتشف أهمية فصل الدين عن الدولة، وأهمية وحدة الأمة وأهمية وحدة المجتمع وأهمية وحدة الهدف. تبين لنا اليوم ولغيرنا أيضاً وأكثر من أي وقت مضى كم كنتَ على حقّ في ارتباط الشام وفلسطين والعراق والأردن ولبنان بمصالح واحدة وبمصير واحد. تبين لنا كم كنتَ على حقّ وكَم بددنا من أحلام ومن فرص مواتية من هذا الإرث الكبير وكَم نحدُ بحاجة إلى العودة إلى فكر سعادة وإلى العقيدة والالتزام. فإنا تنازلنا عن كل ذلك فلماذا استشهدت أنت أيها الزعيم الحبيب؟

إذا كان موتك لم ينفع لقيامتنا وقيامه مؤسستنا وقيامه الأمة فيا خلجنا من التاريخ!

سلام عليك أيها الزعيم الحبيب

سلام عليك منا جميعاً ونعلُف لك باننا مصمومون على إعادة بناء هذا الحزب العظيم.

مصمومون على الصراع والانتصار مهما كانت الشدائد والخيبات.

«بهذا الإيمان نحن ما نحن،

وبهذا الإيمان نحن ما سنكون.

وبما نحن وإلى ما سنكون سيظل هُتافنا يملا الدنيا» لقدنا سوريا وليحيا سعادة.

وبالتصر دائماً.

*** كلمة المسرحية اللبنانية في مناسبة تكريمها من قِبل «مؤسسة سعادة» قبل أيام في ضهور الشوير**

وقت للكتابة

أنت تعيش بأسهين

معطفك وتنفّض عنه أخطاك! السنّة التي ندثت عليها ولم تتأرّح مكانها، على ظهره، منذ لعبة الطفولة. تلك أن يكون لك اسمٌ ثانٍ يعني أن هناك اسماً يتلصّص عليك من فقبِ بابِ الغرفة. كيف تعرّّل الخيبات كلّ أيلة، وتدلّك الأحلام من الحبال. وتتجنّب كلّ الوجوه التي وددت أن تصيرها يوماً، مجدّدةً في بيوت الغناكب. أن يكون لك اسمٌ ثانٍ يعني أن تتجوّ من فعلتك الأولى وتعيش حياةً ثانية تولّد فيها شائتاً بلا ماضٍ سحيق؛ فلا صوَر تتأرجح بين مدِّ وجزر، وأصواتٌ تصعدُ السّلام وتندزلها، وروائحُ تمدّ لسناها تدبّ وتعود لتنتقم.

حدث كلّ شيءٍ بسرعة. دخلَ الرّجُل محلّ الألبسة حيثُ البائعة تتناول فطورها، وحين رمى السّلام ولم تره له التحيّة حاول أن يلتصّق صوته. عن إنزلق ثمّ خرجَ مُطّلقاً أصابعه. وحين لم تدنّ منه طفلةٌ للتنايل التي ابتسم لها ملياً عامٌ وتحسّس يديه وأنفه. في تمام الساعة التاسعة صباحاً من ذاك الأيلول، كان الرّجُل في المنزلة يحملُ إصبعٍ غراءٍ ويبحث عن عينين ضائعتين. منذُك والرّجل معروفٌ بالمدقّق كوتان، الشّبح الذي يستأجر عينين ويسرّف في استنساخهما طول النّهار، عينيّن بلا جفون ودموع، تنظران فقط، كما لو كانتا في وجه سمكةٍ احبّت أن تتمدّد قليلاً.

سارميت

هافيتي

«مقاومة»(مواد

مختلفة على

خلبس — 61 ×

61 × 5,1 سلتم -

2016